

الأمير عبد القادر في ربوع الشام وموقفه  
من الفتنة الطائفية 1856م-1860م  
**The Prince Abdelkader in the levant and  
his position on sectarian sedition 1856-1860.**

صص 37-60

د. حرشوش كريمة  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
جامعة ابن خلدون - تيارت  
Karimahar38@hotmail.com

تاريخ النشر: 2020/06/30

تاريخ القبول: 2020/03/27

تاريخ الإرسال: 2019/12/20

### الملخص:

رغم الكتابات الكثيرة التي كتبت عن الأمير عبد القادر حتى الآن فإننا لا نجد له ترجمة شخصية وافية في أية لغة، فالفرنسيون الذين اهتموا بسيرته ولاسيما بعد 1847م، والذين يملكون عنه أكثر من غيرهم وثائق أساسية عن حياته وعلاقاته ومجالات تفكيره، لم يكتبوا عنه إلا أشياء متفرقة موجهة ترمي في الغالب إلى إثبات تفوقهم من ناحية، وتخدير الجزائريين بإثبات صداقة الأمير للفرنسيين بعد حربهم لهم من ناحية أخرى.

مما لا شك فيه أن تجربة الأمير عبد القادر الجهادية ووقائع أسرته، وصلة الإعتراف المتبادل بينه وبين أعدائه بعد ذلك، قد جعلت منه أبرز رموز الوسط المدني العربي والإسلامي في عصره. فقد كان له من الإعتراب المعنوي ما لم يكن لكثير من سلاطين زمانه، فقد تصدى للقضايا والأزمات بما يتمتع به من مكانة إسلامية وحتى دولية، وهذه المكانة التي بلغها في العالم أجمع إنما بلغها جزاء مساهمته في إطفاء نار

الفتنة الطائفية في الشام عام 1860م، وحال دون تنفيذ المخطط الأوروبي لتقسيم الدولة العثمانية في تلك الفترة المبكرة، كما فتح بيوته للأجئيين إليه من المتضررين، وبذل أمواله ورجاله المخلصين لإطفاء تلك الحرب الأهلية.

في هذه الدراسة نحاول تسليط الضوء على الدور الإيجابي والموقف الإنساني الذي قام به الأمير عبد القادر أثناء إقامته في المشرق، إنطلاقاً من ذكر أسباب الفتنة الطائفية بالشام ونتائجها، وموقف الأمير عبد القادر البطولي منها ودوره في إخمادها، مما ارتقت به إلى مقام عظماء الإنسانية التي ورثها عن أجداده الشرفاء من آل البيت.

الكلمات المفتاحية: الأمير عبد القادر؛ الفتنة الطائفية؛ الحرب الأهلية؛ الشام.

#### **Abstract :**

Despite the many writings that have been written about the prince **Abdelkader** so far, we find no adequate personal translation in any language. The French who were interested in his biography, especially after 1847, and who have more than others basic documents about his life, relations and fields of thought, Directed things aimed mostly at proving their superiority on the one hand, and anesthetizing Algerians by proving the Prince's friendship to the French after their war on the other hand.

There is no doubt that the experience of Prince **Abdelkader** in Jihad, and the facts of his captivity, the link of mutual recognition between him and his enemies after that, has made him the most prominent symbols of the Arab and Islamic civil society of his time. He had the moral consideration unless he had many of the sultans of his time. He dealt with issues and crises with his Islamic and even international stature. He took the precautionary, vigilant, intelligent and wisdom attitude towards every legitimate act of passion that could cause tragedies to the Muslims. Sectarianism in Sham in 1860, and prevented the implementation of the European plan to divide the Ottoman Empire in that early period, and opened his homes to the refugees of the affected, and made his money and his loyal men to extinguish that civil war.

In this paper, we try to highlight the positive role and the humanitarian attitude of Prince **Abdelkader** during his stay in the Levant, based on the reasons for the sectarian strife in Sham and its consequences, and the heroic stance of Prince **Abdelkader** on his role in suppressing it, about his honorable ancestors from Al-Bayt.

**Keywords:** prince Abd-el-Kader; sectarian strife; civil war; Sham.

### تقديم:

إن الأمير عبد القادر بن الشيخ محي الدين الجزائري، عظيم من عظماء الإسلام، وأحد النابغين الذين كانت لها مواقف مشرفة وتأثير بالغ في التاريخ عامة والتاريخ الجزائري خاصة، كما يعتبر أحد المعالم المميزة للحضارة العربية الإسلامية، وأبرز وجوه المقاومة الجزائرية وأكثرها بسالة، فقد تسلم الإمارة بأمانة من أمته واستجابة لأمر وطنه، فقد اختاره شعبه دون غيره، لأنه كان مدركا لمقتضيات العصر وما تحتاجه البلاد فعلا بوجود الإستعمار الفرنسي، وفي وسط تسوده العصبية القتالة، والمنهج السياسي الإستبدادي والتعسفي بالمنطقة -جباية الضرائب بالقوة وانحطاط المستوى الثقافي والإنفراد بالحكم .

لقد تحول تفكير الأمير عبد القادر عن طريق البيعة وجهاده ومظهره الإنساني، وصورته المعرفية من أمير جهاد إلى مفكر عن منهج سياسي، بمعنى أنه كان يعطي الأولوية للجهاد إلى جانب الشجاعة وحسن التسيير والتدبير في وطنه الجزائر، وبعد مقاومة عنيفة وقاسية دامت من 1830م إلى غاية 1847م، أجهض الإستعمار الفرنسي دولته الفتية، فاستسلم للأقدار، وأعلن إنهاء القتال عام 1847م، وأخذ أسيرا إلى فرنسا بعد الخديعة الكبرى والخيانة التي مني بها مع رفقائه، واعتقلوا إعتقالا تعسفيا بدون نص قانوني، وبدون احترام بنود إتفاقية وقف القتال، ثم أفرج عليه بعد خمس سنوات، فحط رحاله بمدينة الإسكندرية، ومنها إلى الخلافة الإسلامية إسطنبول، وخصه السلطان "عبد المجيد خان" باستقبال حافل، ثم سار إلى مدينة بروسة، ومنها إلى دمشق الشام التي استقر بها معززا مكرما إلى أن وافته المنية عام 1883م.

## 1. الأمير عبد القادر في دمشق:

كان الأمير عبد القادر الذي سبقته سمعته إلى المشرق، محل احترام وتقدير من معاصريه فالتفت حوله أهل البلاد وأخذوا عنه كلّ في ميدانه، فهذا يأخذ علما وآخر يأخذ حكمة ونصيحة سياسية، وبذلك أصبح مركز إشعاع ونقطة لقاء للسياسيين والمفكرين والعلماء، بالإضافة إلى الفقراء والمعوزين خاصة في دمشق، ولقد اعتبرت هذه الفترة مرحلة تبدل أساسي وتغيير جوهري في حياته، فقد أعمد سيفه وجرّد قلمه، وفي ذلك تغليب للنواحي الفكرية والثقافية والعلمية على النواحي البطولية والقتالية والعسكرية، حيث اعتبرت أغنى مراحل حياة الأمير قراءة ومطالعة وتأملا صوفيا.

قضى الأمير سبعة وعشرين سنة في دمشق أي منذ عام 1856م إلى غاية 1883م - سنة وفاته- في الكتابة والقراءة والمطالعة، والتأليف، والتأمل، والرّحلات، إضافة إلى تلقيه الدّروس لطلابه، وإلقائه للمحاضرات، فأصبح بذلك مشهورا<sup>1</sup>.

كما كان مركز اهتمام العلماء و المثقفين أكثر من غيرهم، فهو بألقابه الثّلاث :

✓ شريفا من نسل النّبي صليّ الله عليه و سلّم فهو حسيني الأصل.

✓ عالما من العلماء.

✓ مجاهدا و زعيما، إذ جاهد في سبيل الله.

أصبح جديرا بتبجيلهم العميق خاصة من علماء دمشق وفقهائها، فقد كانوا يشعرون أنّهم مرتبطون إليه ليس فقط بمشاعر العاطفة القومية ولكن بالواجب الدّيني، وتجربتهم السّريعة معه في علمه الغزير جعلتهم يتشوقون إلى الإستفادة من معارفه<sup>2</sup>، لدرجة أنّهم طلبوا منه أن يكون أستاذهم، فتكوّنت حلقة درس ديني مؤلّفة من نيف وستين عالما وطالبا، وكانت تجتمع يوميّا في الجامع الأموي الكبير، وكان "الأمير عبد

1- Boualem Bessaieh, Abdelkader à Damas, Souvetage de douze mille chrétiens, Majalat Itinéraire N°6, Juin 2003, ANEP, Rouiba, P86.

2- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر وبع: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2011، ص 351.

القادر" يرأسها ولا يتخلف عن حضورها، ويذكر أن الدرس كان يستغرق ثلاث ساعات متواصلة.

أما عن أهم أعماله في دمشق فقد قام بتعديل المقررات الدراسية لسنوات 1858م - 1859م فلم يعد مهما هنا شرح الألفية، وإنما: "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي، وإقراء طلابه لكتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز" لإبن المبارك، و"الشفا بتصريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض، وأعاد إقراء الجلوس حوله هنا "العقائد النفسية" ونحوها كذلك "صحيح البخاري وصحيح مسلم"، كما اشترى دارا خصصها له سمّاها "دار الحديث"، وافتتحها سنة 1858م.

وكانت أماكن تدريسه تختلف بحسب الظروف، فتارة في المدرسة الأشرفية<sup>1</sup> وأونة في المدرسة الجقمقية<sup>2</sup> وطورا بالجامع الأموي وفي زاوية أبي النصر في بيروت، لقد كان الإقبال على دروس الأمير المسجدية كبيرا، لدرجة أنه بعد رجوعه من رحلة الحجاز قام بفتح منزله لطلبة العلم وخصّص لهم وقتا محدداً يقدّم فيه الدروس، لقد نالت هذه الدروس شهرة كبيرة في سوريا مما جعل كثيرا من العلماء والطلبة يحضرونها.<sup>3</sup>

1- للتعرف على المدرسة الأشرفية ينظر: - محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، مكتبة النوري، ط3، دمشق، 1983، ص71، 72.

- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق، دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة منقحة، الجزائر، 2016، ص84.

2- المدرسة الجقمقية: هي من مدارس الحنفية وتقع الجقمقية شمالي الجامع الأموي، أسسها "سنجر الهلالي" وولده "شمس الدين"، وجدد بناءها "سيف الدين جاقماق"، وخص الخانقاه بالصوفية، وأضاف إليها مدرسة للإيتام ودرس بها جماعة، وجعلت في القرن الماضي مدرسة للذكور، وهي اليوم ما يقرب من الخراب، بسبب مدافع الفرنسيين سنة 1941م. ينظر: - محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، المصدر السابق، ص89.

3- لقد أصبح بيت الأمير مأوى لعباد الرحمن الذين لا تشغلهم شاغلة عن ذكر الله، ومن بين الوفود ثلاث علماء أفاضل: الشيخ عبد الرزاق البيطار، الشيخ محمد الهاني، والشيخ الطنطاوي، الذين لم ينقطعوا عنه أبدا وكانوا يدنون كل ما يتكلم به في مجالسه.

كما كان مولعاً بالمطالعة وجمع الكتب و اقتنائها، مهما كان ثمنها أو مكان وجودها، ولهذا كانت مطالعته من أهم الأنشطة التي يتفرغ لها بعد أداء الصلاة والذكر، وكان يطالع بالدرجة الأولى الكتب ذات الطابع الديني وعلى رأسها القرآن الكريم،<sup>1</sup> ثم الحديث النبوي الشريف. كي يمدّ عطاؤه الفكري و مقامه في التجديد في فهم القرآن، ويبرهن على مايقوله من القرآن و السنة، كما فعل سابقوه فهم بحثوا في القرآن والسنة.<sup>2</sup> إرادة الأمير الكادحة في التفكير والسعي للوصول إلى البعيد، هو الذي جعله يقول بضرورة التجديد في فهم القرآن والسنة، لأنّ قابليتهما لهذا التجدد المستمر وجه من وجوه الإعجاز، ورأيه هذا يعود لأسباب قرآنية وتجريبية وإلهامية ولغوية، وهكذا اطمأن له الأتراك وتأكدوا أنه مع حياته التي يمضيها وسط الكتب والصلاة، لن يشكل خطراً عليهم، وأنه ليس هناك ما يخشونه من سلطانه القديم.<sup>3</sup>

يبدو أن "الأمير عبد القادر" لم يشعر أن الصّراع الثقافي بين الشرق والغرب يُؤذن بالإنهاء يوماً، فقد ظلّ يقرّر ويكرّر منهجه في تدريس الحديث والتّوحيد للخاصة والعامة طول حياته التعليمية، سواء في الإمارة أو في المنفى أو في المهجر،<sup>4</sup> فقد ارتبط

---

1- أحمد صلاح، الأمير عبد القادر المتصوف والمصلح، منشورات دار الأديب، د.ط، وهران، 2007، ص 25.  
2- الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، إعتنى به الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، ج 2، منشورات محمد علي بيضون، ج 1، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 2004، ص 219.  
3- S.H.D, Série, M, sous série M 881, Vie Politique et Militaire D'Abdelkader, conférences faites à la réunion des officiers d'Alger le 28 Mai et 11 Juin 1879 par Moncieur le Capitaine Varigault, F 127.  
4- لقد كان أبلغ ما شغل الأمير في المهجر أي خلال إقامته في دمشق هو تحقيقه للكتب العلمية والأدبية، ففي سنة 1871م أرسل نسخة من "الفتوحات المكية" مع عالمين جليلين الى قونية (مدينة وسط تركية الآسيوية)، لمقابلتها وتصحيحها طبقاً للنسخة الأصلية الموجودة بخط "ابن عربي"، مؤلفها، وبعد تصحيحها بكل إتقان قرأها على بعض الخاصة من العلماء في منزله. - للمزيد من التفاصيل ينظر : - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، 1982، ص 311.

جلوسه للتأليف وتدريب التوحيد وقراءة البخاري وشرحه، بأزمات الصراع العسكري والثقافي في المشرق والمغرب والأندلس.

ففي المشرق أو كما يسميها "دار الأمان"، تألفت إرادة الإصلاح عنده، فتجلى قيامها على الجمع والتوحيد، وسعى إلى لمّ الشمل وإيقاف النزاع بالحوار أو بالسيف، كما حدث في فتنة دمشق 1860م بالشام، والمآخاة بين الطرفين المتعادين<sup>1</sup>.

هكذا صار شخصية مقصودة لقضاء حوائج الناس وعامتهم و خاصتهم، فقد كان محبوبا في الأوساط الشامية ومهابا في الوقت نفسه، فقد سلك مع الجزائريين والشاميين سلوك الملوك الزهاد، وأشركهم في هذه الثروة التي كانت تأتي إليه كعطايا من السلطان العثماني وغيره من الملوك، كما أنه أجرى مرتبات شهرية خاصة للعلماء من العنصر العربي الذين همّستهم الدولة العثمانية، فجعلهم في بلاطه وحاشيته، كما إلتفّ حوله الأشراف ونقاباتهم، إضافة إلى ذلك خصّص يوم الجمعة لإطعام فقراء دمشق، حيث كانوا يهرعون في هذا اليوم إلى بيته في زقاق النقيب بحي العمارة ليصيبوا نصيبهم من مائدته<sup>2</sup> واستمرت حياته هادئة ومستمرة حتى سنة 1860م<sup>3</sup> وهي سنة سوداء ومشؤومة مر بها أهل الشام وسميت بمذبحة الستين، والتي كان له دور في إخمادها مما زادت في شهرته عالميا.

2. الفتنة الطائفية وسعي الأمير عبد القادر من أجل تطويقها 1860م:

1.2. ذكر الأسباب التي أدت إلى مذابح الستين وتآزم الموقف بين الدروز والموارنة:

1- علي الوزير السيد محمد علي، الأمير عبد القادر الجزائري وثقافته وأثرها في أدبه، الطباعة الشعبية للجيش، د.ط، الجزائر، 2007، ص233.

2- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي، المرجع السابق، صص84، 85.

3- Boualem Bessaih, Abd-el-Kader à Damas. Op-cit, p 86.

مجازر الستين في لبنان 1860م، هي صراع شبّ في ربوع سوريا ولبنان، قامت بين الموارنة من جهة والدروز والمسلمين من جهة أخرى، بدأ هذا الصراع بعد سلسلة من الإضطرابات بين الطائفتين، والتي أدت فيما بعد إلى ارتكاب مجازر دموية وعنيفة في حق شعوبها، لدرجة أن هذه المجازر استمرت شاخصة في عيون أهالي جبل لبنان على اختلاف مذاهبهم ومناطقهم لسنوات عديدة، فالأحداث الأهلية المذهبية والطائفية عادت بكارثة مأساوية على جميع أبناء الجبل والمناطق اللبنانية الأخرى، ولفهم أفضل لمجريات الأحداث، لا مناص من العودة إلى الوراء.

في فترة حكم "محمد علي باشا" للشام في الأربعينيات من القرن التاسع عشر ميلادي، قام ابنه "إبراهيم باشا" باعتماد أسلوب إداري يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات والشدة في اتخاذ القوانين، وتقليد الغرب في كل أمر جوهري، الأمر الذي أدخل بالتوازن المتوارث، وأضر بالإمتيازات والمكتسبات الإقتصادية والإجتماعية التي حققتها بعض الفئات على حساب الأخرى،<sup>1</sup> بل وأحدث إضطراباً، وجعل أهالي سورية من المسلمين يتخوفون من إدارة "محمد علي" ويتحولون بعواطفهم إلى السلطان العثماني، وهذا ما ساعد مناصري السلطان العثماني والمتعاونين مع إنجلترا في بلاد الشام على إثارة الفتن ضد حكم "إبراهيم باشا"، فكان ذلك تمهيدا لتعاون بعض الطوائف فيما بعد مع الدول الأوروبية مباشرة، دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية وسيادتها، وهذا ما سمح للإنجليز بالإتصال بطائفة الدروز وتشجيعها على الثورة ضد "محمد علي"، بينما ساندت فرنسا الطائفة المارونية، وشجعتها على الوقوف ضدّ من

1- محمد كرد علي، خطط الشام، ج.6، ص.73.



يمس بمصالحها،<sup>1</sup> وهذا ما هيأ الظروف لحدوث إضطرابات وحروب أهلية. بعد انسحاب الإدارة المصرية من الشام سنة 1841م.<sup>2</sup>

لكننا لسنا هنا بصدد التأريخ للحرب الأهلية التي نشبت بين الموارنة والدروز في جبل لبنان قبل 1860م، والتعمق في تفاصيلها، وإنما نكتفي بالإشارة إلى العناصر التي كانت من أهم أسباب نشوب هذه الفتنة الطائفية، أو كما يسميها البعض حوادث الستين في جبل لبنان، بالرغم من وجود بعض الإختلافات في آراء المؤرخين والكتاب المعاصرون ومن تلاهم، أقرّوا باحتمال وجود مؤامرة، أو أطماعاً أجنبية أدت إلى نشوب الحرب، وإحداث فتنة بين الطوائف.

فمثلاً: يذكر أحمد طربين ملخصاً لأسباب الفتنة إلى نقاط منها:

أولاهـا: الدّسائس الفرنسيـة الإكليريكية.<sup>3</sup> للإنفرد بحكم الجبل والإستثمار بخيراته وأراضيه، فما كان يهـمّ فرنسا هي إحداث القلاقل في جبل لبنان، لتتيح لها فرصة إرسال حملة عسكرية بحجة حماية النصارى، كما يضيف قائلاً أن عملاء فرنسا لم يقتصروا على تحريض الكاثوليك للوثوب على الدرّوز فحسب، بل إنهم أوحوا في الوقت نفسه على بعض أنصارهم من اليزيكيين من آل العماد، وحرّضوهم على العدوان لتحدث في الجبل فتنة تستوجب تدخل فرنسا، فتبسط نفوذها على الجبل وتحقّق أمنيتها،<sup>4</sup> لقد كانت

1- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للإيداع الشعري، د.ط. الكويت، 2000، ص81.

2- للمزيد من التفاصيل حول مشروع محمد علي لغزو الشام ينظر: - أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية 1842م-1861م دراسة في التاريخ السياسي والإجتماعي، مطبوعات جامعة دمشق، ط1، 1966، صص39-70. وينظر:- محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، المصدر السابق، صص73-75. وينظر:- أسد رستم، بشير بين السلطان والعزير من سنة 1804م إلى 1841م، ج1، مطبعة الجامعة اللبنانية، د.ط. بيروت، 1957/ أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية بيان بوثائق الشام، المجلد الثالث، الصحافة الأمريكية، بيروت، 1942.

3- هي مدرسة تعلّم وتفقه، تربي الفتية للإتقاء إلى الكهنوت والإكليروس والرعية كالشماسية والكهنة والأساقفة.

4- أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان، المرجع السابق، ص123.

خطة فرنسا هي دعم الموازنة و"محمد علي" لكي تضمن نفوذها في بلاد الشام، خاصة بعد انسحابها من إتفاقية 1840م.<sup>1</sup>

ثانيا: شارك في مسؤولية حوادث الستين العملاء البريطانيون، الذين رأوا أن مصلحة حكومتهم تعتمد على مساندة الدروز، وقد تحدّث النائب "المستر مونسل Mester Moncel" بأنه وضّح له من التدقيق في تاريخ العشرين سنة الأخيرة أن إنجلترا هي سبب ما جرى في سورية، وذلك بسعيها لإبدال هيئة الحكم في الجبل (الشهابيين)، نكاية بفرنسا ومعارضة لبعض الدول في أوروبا.

ثالثا: عجز الأرسقراطية المارونية عن قمع ثورة الفلاحين في كسروان، وخشية الأرسقراطية الدرزية من انتشار واتساع عدواها من جهة، وتضالّل سيطرة الأكليروس على مقدرات ثورة كسروان من جهة ثانية، مما جعل هؤلاء يرون أن حقوقهم الإقطاعية القديمة وامتيازاتهم أوشكت على الزوال، فألقوا آخر ورقة بيدهم لإنقاذ مصالحهم المهتدة، وأيقضوا نار الفتنة الطائفية بين صفوف الفلاحين.

كما يضيف أنّ بعض التحريضات قام بها العملاء والموظفون العثمانيون للقضاء على امتيازات الجبل، التي كادت أن تصبح في يد الإفرنج، بعد أن استعملوا وسائل المكر والخداع، لأنّ الناس اشتكوا من ضياع سلطة الدولة الاسلامية العثمانية، وصيرورتها إلى يد الإفرنج.<sup>2</sup>

أما المؤرخة "ليندا شيلشر" فقد عرضت بعض التفسيرات عن أسباب أعمال الشغب كما أسمتها، بالرغم من أنها أكدت أن التسليم بهذه التفسيرات تبقى غير كافية من الناحية التاريخية، لأنّ التفسيرات التي قدمتها تقول باحتمال وجود مؤامرة أدّت إلى نشوب أعمال الشغب، وتؤكد أيضا على أن هذه الشذرات التي جمعها ستبقى مقبولة

1- هذه الإتفاقية تمت بين إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بعد انسحاب فرنسا منها، مع الدولة العثمانية للحد من توسعات محمد علي باشا حاكم مصر، على حساب أراضي الدولة العثمانية، والتي كانت سببا في تقليص صلاحياتها.

2- أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان، المرجع السابق، صص 119، 120.

على اختلافها، أمله في صقل ما بين يديها من نظريات لتكوّن أخرى جديدة بعد التمحيص والتدقيق في الوثائق والدلائل.

ووصلت إلى أنّ الكثير من الإحتمالات التي يمكن أن تحمل المرء على اعتبار حوادث الستين في دمشق من الحوادث التاريخية المحكمة، لذلك كان لابد من مواصلة البحث على آليات معينة ومركزية التي أطلقت شرارة أعمال الشغب.

وتضيف: "...أنّ ما لدينا هنا هو انفجار اجتماعي واجتماعي-اقتصادي واجتماعي-نفسى وسياسي- وليس حرباً طائفية..."، وتستدل بذلك على حقيقتين: أولاهما أن جماعة معينة من المسيحيين فقط قد تعرضت للهجوم، بينما ترك المسيحيون الآخرون في سلام، وثانيهما أن بعض المسلمين فقط قد قاموا بالهجوم، بينما قام المسلمون الآخرون بحماية المسيحيين وتقديم العون لهم.<sup>1</sup>

وهذا أكدت أنها ليست حرباً طائفية، بل نتيجة تراكمات نفسية سياسية، إجتماعية وإقتصادية ساهمت في إشعال أعمال الشغب في دمشق.

أما عن كتاب نواذر الزمان "الأبكرىوس"، فيلخص فيه أن كل هذه الحروب والفتن نتاج أطماع أوربية، كانت سابقة منذ العقود الستة من القرن التاسع عشر والتي أطاحت بالدولة العثمانية، وأنّ سياسة الدولة العثمانية تجاه مجموعة الدول الأوربية وسياسة هذه الدول تجاهها، تبيّن لنا بأن الظروف التي عاشتها الدولة فيما أصابها من حوادث ونوازل، إنما كان نتيجة للأطماع الإستعمارية، ورغبة البعض من دول أوروبا في القضاء على هذه الدولة، ولقد تجسّد هذا الصراع في حرب القرم 1853 م، عندما أقدم نصارى القرم على ذبح المسلمين هناك، وساندت روسيا شعب القرم على التحرر من

1- ليندا شلشير، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تر: عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة، عطاق مارديني، دار الجمهورية بيتمونني وشركاه، ط1، دمشق، 1998، ص126.

- لمعرفة الإحتمالات التي ذكرتها شيلشر عن أسباب أعمال الشغب لتصل من خلالها إلى النتائج المذكورة في المتن، ينظر: - المرجع نفسه، صص116-126.

الدولة العثمانية، فكانت حرب القرم سبباً مباشراً لتحريك مشاعر نصارى الدولة العثمانية على التحرر منها والمطالبة باستقلال ذاتي كما حصل في اليونان، وبهذا أصبحت حرب القرم التي عرفت فيما بعد بالمسألة الشرقية من أكبر الكوارث التي عرفتتها الدولة العثمانية في العقد الثالث من القرن التاسع عشر للميلاد، الأمر الذي أظهرها بمظهر الضعف العسكري أمام مجموعة دول أوروبا ذلك الوقت، مما دفع هذه الدول بأن تطمع في أملاكها.<sup>1</sup>

تزايدت أزمات الدولة العثمانية في العقد الرابع من هذا القرن بخروج والي "مصر محمد علي باشا" على السلطان العثماني وإحتلاله لبلاد الشام، وبدخوله إليها عمل على إقامة مبدأ التسامح بين الطوائف في البلاد،<sup>2</sup> فقرب النصارى إلى ديوان حكمه وجعل منهم مستشارين في إدارة البلاد، إضافة إلى مساعدة اليهود في فلسطين على مشروعية التملك والسماح بفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مما أثار عليه بقية سكان بلاد الشام، وكان وجوده سبباً في تكريس الطائفية، فقد حارب الدروز، ووقف النصارى معه في حربه ضدهم وخصوصاً الموارنة بقيادة "بشير الثاني" أمير لبنان.<sup>3</sup> وفي العقدين الخامس والسادس صارت الدولة العثمانية وولاياتها فريسة للتدخل الأوروبي المباشر في سياستها، فكانت حوادث جبل لبنان ثمرة طبيعية لهذا التدخل، الذي دفعت شعوب بلاد الشام وأبناء طوائفه دماءهم رخيصة في ظل فنن وحروب لا شأن لهم بها، جرّهم إليها صراع الدول الأوروبية الإستعمارية. كان "الأمير عبد القادر" في قصره عالماً بوقوع هذه الحوادث وأمثالها، وكان يعلم أنها لا تقف عند هذا الحد، فهو يرى رأي العين مدى تغلغل العداوة والبغضاء في بلاد

1- اسكندر بن يعقوب أبكربوس، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تح: عبد الكريم إبراهيم السمك، رياض الريس للكتاب والنشر، د.ط، بريطانيا، 1987، صص 44-46.

2- S.H.D, Série, M, sous série M 881, op-cit, F 128.

3- اسكندر بن يعقوب أبكربوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، صص 44-46.

الشام بين سكانها من المسلمين ورعاياها من المسيحيين، كما يرى ويعلم مدى تأثير الإنجليز على الطائفة الدرزية، ومدى تأثير الفرنسيين على الطائفة المارونية، وكل واحد من الجهتين يسعى لتحقيق أغراضه الإستعمارية المكشوفة بإيقاع الفتنة بين الطائفتين، حتى تسيل الدماء الغزيرة، وتقع الفوضى، وبذلك تجد الدول الإستعمارية الطامعة مجالاً للتدخل العسكري واحتلال البلاد.<sup>1</sup> غير أنه لم يبق صامداً أمام هذه الأوضاع المزرية وأمام الدسائس الإستعمارية التي واجهها من قبل في بلاد الجزائر، ولذلك سعى جاهداً من أجل تطويق هذه الفتنة والتوفيق بين الطوائف ومحو ما بينها من أحقاد دفيئة ربما رجعت في أصولها إلى الحروب الصليبية القديمة في تلك الأصقاع، لكن القدر شاء أن تعمّ الفوضى، وتزيد من إشعال نار الفتنة التي راح ضحيتها العديد من الناس. فكانت المذابح تعمّ مدن طرابلس وزحلة، دير القمر وحاصبيا التي تلتها مقتلة راشيا وغيرها، حتى وصلت إلى العاصمة دمشق حيث كان يقيم الأمير. حتى أنّ معظم هذه المذابح تزامنت مع وجوده في المشرق.

## 2.2. موقف الأمير عبد القادر من الفتنة ودوره في إخمادها:

جاء في عريضة مسيحي دمشق إلى القنصل في 20 جويلية 1860م، مفسرة أسباب الفتنة أن مسلمي دمشق أخذوا قبل عيد الأضحى الواقع في 29 جوان 1860م، يعقدون جلسات سرية مكثرين من الاختلاء ببعضهم، وكان "أحمد باشا" مشير فيلق عربستان،<sup>2</sup> واقفا على مجرى هذه الدسائس و المؤامرات، لأن المسلمين كانوا يجهرون

1- أحمد توفيق المدني، الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سوريا المحزنة والدولة العثمانية 1860م-1983م، عدد خاص، الجزائر، 1983، ص7.

2- عربستان: عندما سيطر العثمانيون على معظم الوطن العربي، أطلقوا هذه التسمية على بلاد الشام، الحجاز والأحواز ليميزوها عن أراضهم، وتعني التسمية حسب أبكربوس أنها مؤلفة من مقطعين، عرب + ستان، ومعنى ستان: أرض أو البلاد وفي جميع الأحوال هي كلمة تثبت عروبة المنطقة، واستعملها الفرس كتسمية رسمية لهذا القطر العربي، والمقصود بها بلاد الشام أو بلاد العرب. ينظر: -اسكندر بن يعقوب أبكربوس، المصدر السابق، ص223.

بها، منزلين ضروب الإهانات بالمسحيين يوميا، ثم شاع خبر دخول الجيش الروسي "مولدافيا"<sup>1</sup>، فازداد خنق المسلمين تأججا، وفي الوقت ذاته حدثت مجازر لبنان.<sup>2</sup> ويذكر "ابن عبده نعمان" في مؤلفه، أن هياج المسلمين كان يشتد يوما بعد يوم بفعل دسائس "أحمد باشا"، حتى صار القوم يسمعون أخبار المذابح يوميا كالتي حصلت في راشيا وحاصبيا، ودير القمر، وزحلة، التي زادهم الاستيلاء عليها (أي زحلة) هياجا، ويضيف أنه لما جاء للمسلمين أنباء سقوطها وذبح رجالها قاموا بتزيين المدينة وإقامة الأفراح، بينما النصارى من حولهم ينظرون، ويهانون ويشتمون ويتظلمون<sup>3</sup>، وبطبيعة الحال زاد خوفهم وتنبؤهم بسوء عاقبتهم وماذا ينتظرهم من أحداث خطيرة.

قنط النصارى من النجاة من مخالف الحكومة وحقد المسلمين وقساوة الدروز، وابتلوا بالفاقة والحاجة فقنطوا من الحياة جوعا وتعددت عليهم المصائب وكثر ارتباكهم، ولكن قُدِّرَ لهم أن يكون بين المسلمين شهم يرق لحالهم، ويرثي لمصائبهم، وهذا الشهم هو "الأمير عبد القادر الجزائري" الذي كان لا يترك فرصة تفوته من أجل الدفاع عنهم، فاجتمع بالوالي وبأعيان المدينة مرات عديدة وحثهم على الإخلاء والميل إلى السلام والإقلاع عن الثورة لأنه علم بأن العاقبة وخيمة، وإذا وقع في دمشق نظير ما وقع في لبنان، سيجعله الأجانب لا محالة ذريعة لخراب البلاد، وأفرغ قصارى جهده في إرجاعهم

1- مولدافيا: دولة في أوربا الشرقية.

2- مجموعة المحررات والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، جمع وترجمة فيليب وفريد الخازن، وقد صدرت بثلاثة أجزاء وهي مأخوذة من الكتاب الأزرق الإنجليزي ومن مجموعة دوتستا فيما يخص شؤون سوريا ولبنان بين (1840م- 1861م)، وفي المحررات أوراق رسمية أخرى مستقاة من بعض الكتب والنشرات العربية والأجنبية، ومن ضباط البرلمان الفرنسي، المجلد الثاني، طبع في مطبعة الصبر في جونية 1910م-1911م، صص 172، 173.

3- ابن عبده نعمان، حسر اللثام عن نكبات الشام، طبع في مصر، ط1، 1895، ص 224.  
- ميخائيل مشاقفة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، منشاه ملحم خليل عبود، أندراوس حنا شخاشري، طبع بمصر، 1908، صص 172، 173.

إلى الهدى والصواب، ولم يتركهم حتى استوثق منهم بالوعدو بإجابة طلبه، وجعلهم يدعونون لنصائحه.<sup>1</sup>

ومع هذا كان من أمر الأمير كي يحقق مأربه هو استقدام رجاله المخلصين الجزائريين، حتى يمنع بهم الفوضى والعنف، فكما جاء في عريضة مسيحي دمشق حول ما قام به رجال الأمير ما يلي: "...إذ ذاك اعتزم المتعصبون على إيقاظ الفتنة عاجلا، وضربوا عيد الأضحى موعدا لها على أن الأمير كان يقظا لاتأخذه سنة النوم، فاستقدم إليه جميع الجزائريين المشتغلين بحراثة الأراضي في السهول المجاورة، فاجتمعوا لديه فسلّحهم وقسّمهم إلى جماعات، وأمرهم بالطواف في الأحياء، والسهر على حفظ الراحة العامة..."<sup>2</sup>.

لقد كانت للهجرات الجزائرية نحو بلاد الشام أثرها الإيجابي في إخماد نار الفتنة، فقد استند الأمير عبد القادر على رجاله الجزائريين الموجودين في دمشق من أجل ذلك.

ويضيف الكسرواني: "... أن الأمير عبد القادر جمع إليه جميع المغاربة الموجودين في الشام، وفرّق عليهم الأسلحة والمال، ليكونوا جاهزين لأدنى سبب، فيحضروا إليه..."<sup>3</sup>.

لقد اعتمد الأمير عبد القادر على رجاله لأنه قنط من مساعدة "أحمد باشا" بالمدافعة عن النصارى، إضافة إلى موقف الدولة العثمانية العاجز أمام هذه الأحداث

---

1- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام 1860م ومقدماتها في سوريا ولبنان، دراسة وتح: سهيل زكار، التكوين للدراسات والترجمة والنشر، دط، دمشق، 2006، ص254. وينظر: -محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2013، ص114.

2- مجموعة المحررات، المجلد الثاني، صص179، 180.

3- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، ص389.

المؤسفة، فأمر رجاله بعد قرار اتخذه بنفسه بالذهاب إلى حيم، وأمرهم بحماية وتخليص كل من يقدر على تخليصه من مخالف الثائرين،<sup>1</sup> وساعده في ذلك علماء مسلمين وشرفاء الناس، وغيرهم من أبناء دمشق المخلصين، كما فتح داره لهم وبذل كامل همته وأمواله ورجاله وسلاحه لإنقاذ ما تيسر له إنقاذه، ومرافقتهم إلى برّ الأمان في القلعة التي خصصها الوالي لحمايتهم بطلب منه، بعد أن امتلأت داره بالضحايا،<sup>2</sup> حتى أن مسلمي الصالحية هبوا إلى بيته للهجوم عليه، بعد أن بلغهم أنه محتفظ بالنصارى عنده، فتجمعوا أمام داره، لكنه ليس ممن تهوله التهديدات، فخرج إليهم برجاله الأمناء، وتهدهم بصرامة العقاب، وأظهر إستعداده لمقابلتهم بالقوة، ولما شاهدوا أنه على أهبة أن يكيل لهم الكيل، تركوه خوفاً من سطوته وشدة بأسه.<sup>3</sup>

وفي هذا الصدد يضيف صاحب تحفة الزائر قائلاً: "... وفي اليوم الثالث إجتمع السّفهاء من البلد والصالحية عند باب الحديد بالعمارة قاصدين الهجوم علينا، فتوجّه الأمير إليهم وألقى الله الرّعب في قلوبهم عند رؤيته، ورجعوا على أعقابهم، واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة أربعة عشر يوماً كل ذلك والأمير مشغول بأخذ الوسائل، ليتوصّل إلى إطفائها باذلاً جهده في حسم أسبابها، ولم يدخل إلى بيته في أيامها بل كان يجلس على سجادة في دهليزه، لا يهجع من اللّيل إلّا قليلاً، والباعث له على حمل تلك

---

1- ميخائيل مشاققة، مشهد العيان. المصدر السابق، ص 176. وينظر: تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، ص 257.

2- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص 257. وينظر: الوثيقة رقم 111. خلاصة عريضة مسيحي دمشق إلى القناصل في 20 تموز عن بقاء الأمير طول الليل وهو يتفقد النصارى ويوصلهم إلى داره أو إلى القلعة. ينظر: محررات، المصدر السابق، صص 180، 181.

3- ميخائيل مشاققة، مشهد العيان، صص 175-177. وينظر: تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، ص 258.



المشاق هو تأييد الدولة العلية والدفاع عن حوزتها، إذن لو لم يقف في وجوه الغوغاء، لاستأصلوا النصارى واستلحموهم، وتفاقم الوضع أكثر ممّا وقع...<sup>1</sup>.  
لم يتوقف "الأمير عبد القادر" عند هذا فحسب بل واصل عمله الإنساني الذي تمليه عليه معالم الشريعة الإسلامية السمحاء، حيث عمل هو ورجاله الجزائريين المهاجرين على تأمين خطوط المواصلات بين دمشق وبيروت، وتأمين قوافل اللّاجئين علاوة على مساهمتهم إلى حد كبير في المحافظة على حالة الأمن في دمشق، وإغاثة النصارى وتخليصهم من البلاء الذي كاد يودي بحياة الكثيرين منهم.  
وبعد إخماد نار الفتنة الطائفية، قدم إلى بيروت وزير خارجية الدولة العثمانية "فؤاد باشا"، والذي كان السلطان قد عينه مندوباً سامياً في الشام، ووعد الأمير عبد القادر أن يستمر في الإهتمام بمدينة دمشق، وأنه قد أرسل إليها قوات جديدة لأجل حادثة الشام والجبل، كما أرسل رسائل إلى وجهاء الشام جميعاً يشكرهم على ما صنعوههم وبقية الشرفاء، واتخذ على الفور إجراءات أمنية صارمة من أجل التحقيق في الحوادث،<sup>2</sup> لأنه كان عليه إيجاد حل لمشكلة عويصة من مشاكل الدولة العثمانية.

هنا يسجل التاريخ للأمير أنه كان من الفطنة والذكاء والحنكة، ما جعله يتعامل مع الموقف في الحدود التي لا تؤثر في مكانته ولا تضر بمصالح العرب، ولا تحقق الأهداف الأوربية، فهو كما وصفه أعداؤه في الجزائر، ظل ومازال أمل (الوطنية العربية)، ونموذج الزعيم العربي والقائد المسلم الذي لا تهزه الأحداث الطارئة، ولا تؤثر فيه المخططات الظرفية، لأنه أكبر شخصية موجودة في المشرق وجزء من ذاكرة الأمة العربية

1- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، ص115.

2- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، ص304.

وينظر:- ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص112.

الإسلامية، فهو معبر صادق عن آمالها وطموحاتها، وهذا ما جعل حياته الحافلة بالأحداث الجسام بحق رجة حضارية حدثت في الجزائر، ووصل أثرها إلى المشرق. فالأمير عبد القادر كان يشعر بحاجة الناس إليه، وبحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، ليس فقط أمام أتباعه وإنما اتجاه أفراد المجتمع الشامي، فوجوده في دمشق أصبح يشكل ضمانا لمواطنيها ولحفظ الأمن، وأنه إذا غادرها فهذا يعني بدء هجرة جماعية للمسيحيين من سوريا<sup>1</sup>، فمنذ وصوله إليها على رأس جماعة كبيرة من الجزائريين وفرقة شبه عسكرية كان لها دخل ووقع كبيرين على المدينة<sup>2</sup>، فقد وجد نفسه أمام مسؤولية قومية ودينية، جعلته يتفرد عن غيره من أبناء الأسرة الدمشقية السياسية والعلمية، كونه لعب دور رجل الإطفاء بجدارة، وفتح بيوته للأجئيين إليه من المسيحيين في دمشق كخطوة رمزية عملية على احتضانهم، وهي ماثرة لا تزال تذكر له إلى اليوم. فقد بذل كامل همته في ذلك، وبذل أمواله ورجاله المخلصين للمدافعة على النصرى، حيث قال صاحب حلية البشر في هذا الصدد: "... أنّ سعادة الأمير المعظم والكبير والمفخّم حضرة الأمير عبد القادر الجزائري قد بذل كامل همته في ذلك وبذل أمواله ورجاله في خلاص من غدر عليه من المهالك..."<sup>3</sup>.

وها هو أبكوريوس يمدحه قائلا: "... خلّص الأمير عبد القادر عددا كثيرا، وجمعا غفيرا من الرجال والصبيان، والبنات والنسوان، ودفع عنهم سيوف البغي والعدوان، وأبدل خوفهم بأمان، وأحضرهم إلى داره العامرة، وكان يقدم لهم الأطعمة الفاخرة، ويصرف عليهم المصاريف الجزيلة الوافرة، ويتلطّف بهم غاية التلطيف، ويؤانسهم

1- هذا حسب ما جاء في البرقيات السرية الموجهة إلى طرابيا (وهي المقر الصيفي لسفير فرنسا على البوسفور). ينظر:- برونو إيتيان، عبد القادر الجزائري، تر: خوري ميشيل، دار عطية للنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص452.

2- ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص252.

3- عبد الرزاق بيطار، حلية البشر، ج2، ص264.

بالكلام الرقيق اللطيف، ويعزيهم على ما أصابهم، ومادهاهم وناهم، فأنفق في تلك البرهة مبلغا عظيما، ومقدارا من المال جسيماً، فتضاعفت في الإرتقاء مرتبته، وارتفعت عند الملوك منزلته، وأتاه الشكر من جميع ملوك الدول...<sup>1</sup> ويضيف قائلاً: "... لو أردنا أن نستوفي بالتفصيل ما فعله هذا الأمير الجليل، والسيد الفاضل النبيل، من المعروف والخير الكثير، لاحتجنا إلى مجلد كبير حفظه الله، وأبقاه، وصانته وحماه..."<sup>2</sup>.

أمّا عن عبد العزيز العظمة ففي مدحه للأمير يقول: "... فإنه عفا الله عنه فتح داره وصدره إلى المنكوبين، ونال جزاء عمله شكر الدول المعظمة وأوسمتها العالية..."<sup>3</sup>. لم يتغير موقف الأمير عبد القادر في مساعدة ضحايا الفتنة الطائفية، فقد تمكن من إنقاذ عدد كبير من فقراء دمشق من تلك الغرامات الثقيلة والتي لا يطيقونها، حتى وأنه وبعد الفتنة شفع للمنفيين في قبرص ورودس فقبل السلطان شفاعته وأطلق سراحهم،<sup>4</sup> لقد تابع جهاده في دمشق علميا وسياسيا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وفضله على بلاد الشام أقر به القريب والبعيد.

أما موقفه من الأبرياء والعزل من أهل الذمة، يعتبر موقفا شرعيا، فهو لم يكن متفردا في ذلك، فقد أيده في موقفه أكابر وأعيان وعلماء دمشق، كالشيخ "محمود الحمزاوي"، والشيخ "مسلم الكزبري"، وغيرهم، كما أيده في موقفه شيخ المجاهدين

1- اسكندر بن يعقوب أبكربوس، المصدر السابق، ص 256.

2- اسكندر بن يعقوب أبكربوس، المصدر السابق، ص 257.

3- عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تج: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987، ص 181.

4- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج 2، ص 719. وينظر:- عبد الرزاق بيطار، حلية البشر، ج 2، المصدر السابق، صص 899، 900.

"الأمير شامل الداغستاني"<sup>1</sup> رحمه الله، إضافة إلى إعجاب قادة ومفكري الدول الأجنبية بموقفه، فهذا لا يعني ترك الأمر الشرعي، بل استثمر الأمير ذلك من خبرته وحنكته السياسية لمصلحة شعبه ومواطنيه، والتزامه الكبير بالمسؤولية وبأوامر الشريعة الإسلامية، والتي طبقها للمحافظة على تماسك الدولة العثمانية، مبطلا المخطط الأوربي الذي كان يطمع في إقتطاع بلاد الشام من الدولة العثمانية.

لقد حركت القوى الأجنبية لضرب قلب الحركة القومية، ووحدة الأمة العربية، كل بطريقتها ومن منظورها ولإحداثها الفتنة بين الدروز والنصارى في جبل لبنان، كما حركت الأمير عبد القادر الذي بدأ في الشام وكأنه رجل تخلق عن أي طموح سياسي، بعد متابعتة دروسه في المسجد الأموي، حيث تحرك ومعه كثير من علماء دمشق، بعد أن طلب من الوالي التصدي لها -أي الفتنة- إذا ما وصلت دمشق فيوافقه على طلبه، وبدأ في مراسلاته مع الدروز في نواحي دمشق يحذرهم من هذا المخطط، لكن الفتنة كانت وصلت في 1860م، والأمير عبد القادر لم يأخذ دور المتفرج بل عزم على تحمل المسؤولية كزعيم، أو كشخصية ميالة إلى الحركة والنشاط، متطلعا على سرائر الأمور ودقائقها، حيث أنه منذ 1860م كان قد أبلغ أعيان الشام، وخاصة الدروز أن الدول الكبرى تتحين الفرصة لابتلاع بلاد الشام، كما يعلم أن الدولة العثمانية إذا فقدت هذه البلاد العربية التي تحكمها، ستتضاءل وتنكمش، كما أنه يعلم أن أجهزة الجوسسة من كل صنف ولون تخترق البلاد، لذلك كان دائما يأخذ الحيطة والسرية.

---

1- شامل الداغستاني: هو محمد شامل القوقازي الداغستان، قائد الثورة في داغستان والشيشان، ويعتبر بطل القوقاز، ويعد واحدا من الزعماء الذين بعثوا برسائل التهنية للأمير عبد القادر يمدحه فيها ويشكره عن موقفه الإنساني الذي قام به في حق المسيحيين، وكان للأمير فضل عليه حيث تدخل لإطلاق سراحه لدى نابليون الثالث وقبصر روسيا فتم ذلك، وبعد اطلاق سراحه توجه إلى الحجاز ومات بالمدينة بعد أن تجاوز سن السبعين سنة. ينظر: - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 364.

وهكذا استطاع بحنكته وبعد نظره، والتزامه الكبير بالمسؤولية وبأوامر الشريعة الإسلامية، أن يحافظ على تماسك الدولة العثمانية، ويبطل المخطط الرامي لاقتطاع بلاد الشام من الدولة العثمانية، ويمنع جيوش فرنسا من دخول الشام ويردّها على أعقابها خائبة، ولمّا بلغت أخبار هذه الواقعة الهائلة حضرة الخليفة العثماني "عبد المجيد خان"، وما صنعه "عبد القادر" في سبيل طاعة الخليفة وأداء واجب خدمته، أظهر له رضاه العالي بفعله وأنعم عليه بالنيشان المجيدي العالي<sup>1</sup>، وتوالت مكاتب الشكر والتهنئة والتقدير من جميع الدول ومن الأدباء والشعراء والعلماء، والأعيان إقتداءً بالدولة العثمانية.

#### خاتمة:

في الأخير ما يمكننا قوله أن الأمير عبد القادر راح ضحية بعض المؤرخين الذين اختصروا حياته بدمشق، وأعابوا امتلاكه لبعض البيوت، متناسين في ذلك أنه كان مسؤولاً عن الجزائريين المهاجرين إلى بلاد الشام بعد إجهاضه دولته، بالإضافة إلى دوره الإيجابي ومساهمته في نهضة بلاد الشام، كما لا ننسى إطفاءه لنار الفتنة بدمشق 1860م، بشهادة المؤرخين الدمشقيين أمثال: "الشيخ عبد الرزاق البيطار، الدكتور ميخائيل مشاققة، والباحث سهيل زكار، والقاسمي، وملح الصلح والد عادل الصلح، ومحمد الخاني والد عبد المجيد الخاني"، وغيرهم ممّن أطنبوا في الكلام عن دروس الشيخ "عبد القادر الجزائري" في جامع بني أمية في دمشق وعن أفكاره النهضوية وتجربته الثورية في الجزائر ضد فرنسا، وما قام به لبناء دولة جزائرية حديثة، إضافة إلى تسامحه الديني والفكري، وتنقله المستمر لزيارة أهل بلاد الشام، بكل طوائفهم الدينية والمذهبية من سنة وشيعة وعلويين، ودروز وموارنة، وكاثوليك، زائراً باستمرار قراهم

1- ينظر: - Osmanli Arsivi, I.HR, 12335.

ومدنيهم، في دمشق، وحلب، حمص ودرعا والأذقية وجبالهم، هذا بالإضافة إلى دعوتهم للتآخي بين أهل الشام والتسامح وتحذيرهم من مؤامرات القناصل الأوربيين خاصة قنصلي بريطانيا وفرنسا، اللذان يريدان إشعال نار الفتنة بين الإخوة العرب في بلاد الشام، ليسهل عليها تفتيت الخلافة العثمانية واحتلال البلاد العربية، بيد أن حنكة وخبرة الأمير حالت دون تحقيق ذلك.

### قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، إعتنى به الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، ج2، منشورات محمد علي بيضون، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2004.
- 2- أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية 1842م-1861م دراسة في التاريخ السياسي والاجتماعي، مطبوعات جامعة دمشق، ط1، 1966.
- 3- أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز من سنة 1804م إلى 1841م، ج1، مطبعة الجامعة اللبنانية، دط، بيروت، 1957.
- 4- أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية بيان بوثائق الشام، المجلد الثالث، الصحافة الأمريكية، بيروت، 1942.
- 5- اسكندر بن يعقوب أبكوريوس، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تح: عبد الكريم إبراهيم السمك، رياض الرئيس للكتاب والنشر، دط، بريطانيا، 1987.
- 6- ابن عبده نعمان، حسر اللثام عن نكبات الشام، طبع في مصر، ط1، 1895.
- 7- أحمد صلاح، الأمير عبد القادر المتصوف و المصلح، منشورات دار الأديب، دط، وهران، 2007.

- 8- أحمد توفيق المدني، الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سوريا المحزنة والدولة العثمانية 1860م-1983م، عدد خاص، الجزائر، 1983.
- 9- برونو إيتيان، عبد القادر الجزائري، تر: خوري ميشيل، دار عطية للنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1997.
- 10- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام 1860م ومقدماتها في سوريا ولبنان، دراسة وتح: سهيل زكار، التكوين للدراسات والترجمة والنشر، د.ط، دمشق، 2006.
- 11- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1982.
- 12- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق، دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة منقحة، الجزائر، 2016.
- 13- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة.
- 14- علي الوزير السيد محمد علي، الأمير عبد القادر الجزائري وثقافته وأثرها في أدبه، الطباعة الشعبية للجيش، د.ط، الجزائر، 2007.
- 15- عبد العزيز العظيمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تح: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987.
- 16- ليندا شلشير، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تر: عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة، عفاف مارديني، دار الجمهورية بيتموني وشركاه، ط1، دمشق، 1998.
- 17- محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، مكتبة النوري، ط3، دمشق، 1983.
- 18- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2013.
- 19- ميخائيل مشاققة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، منشأه ملحم خليل عبود، أندراوس حنا شخاشبري، طبع بمصر، 1908.

- 20- مجموعة المحررات والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، جمع وترجمة فيليب وفريد الخازن، وقد صدرت بثلاثة أجزاء وهي مأخوذة من الكتاب الأزرق الإنجليزي ومن مجموعة دوتستا فيما يخص شؤون سوريا ولبنان بين (1840م-1861م)، وفي المحررات أوراق رسمية أخرى مستقاة من بعض الكتب والنشرات العربية والأجنبية، ومن ضباط البرلمان الفرنسي، المجلد الثاني، طبع في مطبعة الصبر في جونية 1910م-1911م.
- 21- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للإبداع الشعري، د.ط، الكويت، 2000.

22- S.H.D, Série, M, sous série M 881, Vie Politique et Militaire D'Abdelkader, conférences faites à la réunion des officiers d'Alger le 28 Mai et 11 Juin 1879 par Moncieur le Capitaine Varigault, F 127.

23- Osmanli Arsivi, IHR, 12335.

24- Boualem Bessaieh, Abdelkader à Damas, Souvetage de douze mille chrétiens, Majalat Itinéraire N°6, Juin 2003, ANEP, Rouiba.